كلية العلوم الإسلامية

قسم العقيدة والدعوة والفكر **المحاضرة الخامسة**

مدرس المادة: أ.م.د. أيسر فائق جهاد

المرحلة : الأولى الكورس الأول

المادة: التصوف والأخلاق

عنوان المحاضرة (أخلاق الصوفية)

المصادر: حقائق عن التصوف : الشيخ عبد القادر عيسى

الرسالة القشيرية: الإمام أبو القاسم القشيري ومصادر أخرى في التصوف والسلوك

أخلاق الصوفية

تميز السادة الصوفية طوال تاريخهم بأخلاقيات انفردوا بها عن غيرهم وخصوا أنفسهم بها دون سواهم، بجانب الأخلاقيات الإسلامية العامة التي ينبغي أن يتحلى بها كل مسلم انطلاقاً من حديث النبي ﷺ : (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)، ولذلك عرف الصوفي بالأخلاق، ومن زادك في الخلق والصفاء زادك في التصوف.

والتصوف في مفهومه الصحيح كما بينه أئمته منهج سلوكي تربوي قائم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبه تتم مكارم الأخلاق ويتم كمال الأدب، وبه تدرك الفتوحات الربانية والأنوار المحمدية، يقول الإمام الغزالي رحمه الله: ((إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن مسيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق)).

فالصوفية هم أوفر الناس حظاً من الإقتداء برسول الله ﷺ وأحياء سنته والتخلق بأخلاقه، لأنهم وقفوا في بداياتهم لرعاية أقواله، وفي وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأثمر لهم ذلك في نهاياتهم أن تحققوا بأخلاقه ﷺ ، وتحسين الأخلاق لا يتأتى إلاّ بعد تزكية النفس وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ ، لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفساً كان أحسنهم خُلُقاً.

وسُئِلت سيدتنا عائشة رضي الله عنها وعن أبيها عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: كان خُلُقه القرآن.

قال الإمام الجنيد رحمه الله: ((كان خُلُقه عظيماً، لأنه لم يكن همّه سوى الله)).

وقيل: لأنه عليه الصلاة والسلام عاشر الخلق بخُلُقه وباينهم بقلبه وهذا ما قاله بعضهم في معنى التصوف: التصوف الخُلُق مع الخَلق، والصدق مع الحق.

فمن أحسن أخلاق الصوفية ما يأتي:

أولاً: التواضع:

إن التواضع خير لباس يلبسه العبد، ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة فقد ظفر بخير كثير، والتَّواضُع نوعان : **أحدهما محمود، والآخر مذموم** ، والتَّواضُع المحمود : ترك التَّطاول على عباد الله والإزراء بهم . والتَّواضُع المذموم : هو تواضع المرء لذي الدُّنْيا رغبةً في دنياه، فالعاقل يلزم مفارقة التَّواضُع المذموم على الأحوال كلِّها، ولا يفارق التَّواضُع المحمود على الجهات كلِّها.

ومن صور التواضع :

١- **تواضع الإنسان في نفسه**، ويكون ذلك بألَّا يظنَّ أنَّه أعلم مِن غيره، أو أتقى مِن غيره، أو أكثر ورعاً مِن غيره، أو أكثر خشيةً لله مِن غيره، أو يظنُّ أنَّ هناك مَن هو شرٌّ منه، لأنَّ القلوب بين إصبعين مِن أصابع الرَّحمن، يقلِّبها كيف يشاء، قال تعالى: ﴿ **وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾، وقال بعضهم : ما دام العبد يظنُّ أنَّ في الخَلْق مَن هو شرٌّ منه فهو متكبِّر، فقيل له: فمتى يكون متواضعاً ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً.

ومِن التَّواضُع ألَّا يَعْظُم في عينك عملك، إن عملت خيراً، أو تقرَّبت إلى الله تعالى بطاعة، فإنَّ العمل قد لا يُقْبَل.

٢- **تواضع الإنسان مع الناس**، فالمسلم يخالط النَّاس ويدعوهم إلى الخير، وإلى الأخلاق الإسلاميَّة، ومِن طبيعة النَّاس أنَّهم لا يقبلون قول مَن يعظِّم نفسه ويحقرهم، ويرفع نفسه ويضعهم، وإن كان ما يقوله حقّاً، بل عليه أن يعرف أنَّ جميع ما عنده هو فضلٌ مِن الله تعالى، فالمسلم المتواضع هو الذي لا يعطي لنفسه حظّاً في كلامه مع الآخرين، ومِن تواضع المسلم مع

النَّاس: أن يجالس كلَّ طبقات المجتمع، ويكلِّم كلًّا بما يفهمه، ويجالس الفقراء والأغنياء.

٣- **تواضع الإنسان مع من هم أقل منه منزلة**، مِن التَّواضُع : التواضع مع من هو أقل منك، بل لا يُتصوَّر التواضع إلا مع من هو دونك، سواء في العلم أو الفهم أو المال أو الجاه ومن هو أصغر منك سناً وغير ذلك، بل إذا رأيت من وقع في معصية فلا تتعالى عليه وتعجب بنفسك وعملك، فربما كانت معصيته سبباً في توبة وإنابة، وذل وانكسار، وربما كان إعجاب الإنسان بعمله سبباً في حبوط عمله. عن جندب ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ حدَّث : **(أنَّ رجلًا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وأنَّ الله تعالى قال : مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟! فإنِّي قد غفرت لفلان وأحبطت عملك)**.

وفي ذلك كله لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فهو جمّ التَّواضُع، لا يعتريه كِبرٌ ولا بَطَرٌ، على رِفْعَة قَدْرِه وعلوِّ منزلته، يخفض جناحه للمؤمنين ولا يتعاظم عليهم، ويجلس بينهم كواحد منهم، ولا يُعْرَف مجلسه مِن مجلس أصحابه؛ لأنَّه كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، ويجلس بين ظهرانيهم فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل عنه. وكان ﷺ مِن تواضعه، يتفقَّد أحوال أصحابه ويقوم بزيارتهم، عن عبدالله بن عمرو قال: أن رسول الله ﷺ ذكر له صومي، فدخل علي، فألقيت له وسادة من أدم حشوها ليف، فجلس على الأرض، وصارت الوسادة بيني وبينه، فقال لي: **(أما يكفيك من كل شهر ثلاثة أيام؟)** قلت: يا رسول الله، قال: **(خمساً)** قلت: يا رسول الله، قال: **(سبعاً)** قلت: يا رسول الله، قال: **(تسعاً)** قلت: يا رسول الله، قال: **(أحد عشر)** قلت: يا رسول الله، فقال النبي ﷺ : **(لا صوم فوق صوم داود، شطر الدهر، صيام يوم، وإفطار يوم)**.

ومتى لم يكن للصوفي حظ من التواضع على بساط القرب لا يتوفر حظه في التواضع للخلق، وهذه سعادات جاءت بكليتها والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية.

ثانياً: المداراة واحتمال الأذى:

المداراة لغةً: مصدر دارى، يقال: داريته مداراة: لاطفته ولاينته، ومداراة الناس: أي ملاينتهم وحسن صحبتهم واحتمالهم؛ لئلا ينفروا عنك .

ومعنى المدَاراة اصطلاحاً:قال ابن بطال: (المدَاراة: خفض الجناح للناس، ولين الكلام وترك

الإغلاظ لهم في القول).

وقال ابن حجر: (المراد به الدفع برفق).

وقال المناوي: (المدَارة: الملاينة والملاطفة).

وهناك فرق بين المداراة والمداهنة: قال ابن بطال: (المدَارة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أنَّ المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسَّرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمدَارة : هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل،ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك) .

وقال القرطبي في الفرق بينهما: (أنَّ المدَارة: بذل الدنيا لصلاح الدنيا، أو الدين، أو هما معاً، وهي مباحة وربما استحبت. والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا).

وقال الغزالي: (الفرق بين المدَارة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيت لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظِّ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن)

وكان رسول الله ﷺ من مداراته أنه لا يذم طعاماً ولا ينهر خادماً، والمداراة مع كل أحد الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية، وبإحتمال الأذى يظهر جوهر النفس، وقد قيل: لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر. قال عليه والصلاة والسلام: (**المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**).

وصفة المُدَارة يحتاج إليها في التعامل مع بعض الأشخاص، في بعض الأوقات، ومن صور المداراة:

١- **صيانة النفس من أهل الفجور والشرور**: عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها، أن رجلا استأذن على النبي ﷺ ، فقال: (**ائذنوا له، فلبئس ابن العشيرة، أو بئس رجل العشيرة**)، فلما دخل عليه ألان له القول، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله قلت له الذي قلت، ثم ألنت له

القول؟ قال: **(يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، من ودعه، أو تركه الناس اتقاء فحشه)**. وهذا فيما لا بد من مخالطته.

٢- **في دعوة الناس والسلطان:** قال تعالى : **﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾** . أمر الله جلَّ وعلا نبيه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يقولا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه **قَوْلاً لَّيِّنًا** أي: كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين جلَّ وعلا المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: **﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾**، وهذا غاية لين الكلام ولطافته ورقته، وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أشار له تعالى في غير هذا الموضع، كقوله: **﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾**. قال ابن القيم رحمه الله: ((المداري يتلطَّف بصاحبه حتى يستخرج منه الحقَّ، أو يردَّه عن الباطل)).

٣- **المدَاراة مع النفس:** بحملها على الطاعة بذكر نعيم الجنة، وكفها عن المعصية بذكر عذاب النار. قال ابن الجوزي: ((ومن فهم هذا الأصل، علَّل النفس، وتلطف بها، ووعدها الجميل، لتصبر على ما قد حملت، كما كان بعض السلف يقول لنفسه: والله ما أريد بمنعك من هذا الذي تحبين إلا الإشفاق عليك... واعلم أن مداراة النفس والتلطف بها لازم، وبذلك ينقطع الطريق)).

ثالثاً: الإيثار:

يعتبر الإيثار من محاسن الأخلاق الإسلامية، فهو مرتبة راقية من مراتب البذل، ومنزلة عظيمة من منازل العطاء، لذا أثنى الله على أصحابه ، ومدح المتحلين به، وبيّن أنهم المفلحون في الدنيا والآخرة، قال الله تبارك وتعالى: **﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾**.

قال الطبري: ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَهُوَ يَصِفُ الأَنْصَارَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ. مِنْ قَبْلِ الْمُهَاجِرِينَ: وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. يَقُولُ: وَيُعْطُونَ الْمُهَاجِرِينَ أَمْوَالَهُمْ إِيثَارًا لَهُمْ بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ. يَقُولُ: وَلَوْ كَانَ بِهِمْ حَاجَةٌ وَفَاقَةٌ إِلَى مَا آثَرُوا بِهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِم)).

وقال ابن كثير: ((أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك)).

ويقول ابن تيمية: ((وأما الإيثار مع الخصاصة فهو أكمل من مجرد التصدق مع المحبة فإنه ليس كل متصدق محباً مؤثراً ولا كل متصدق يكون به خصاصة بل قد يتصدق بما يحب مع اكتفائه ببعضه مع محبة لا تبلغ به الخصاصة)).

رابعاً: ومن أخلاق الصوفية أيضاً ما ذكره السُهرَوردي في عوارف المعارف: بقوله: ومن أخلاقهم **التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة**، وقد روي عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **(رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت يا جبريل لمن هذه؟ قال للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس).**

ومن أخلاقهم **البشر وطلاقة الوجه**، فالصوفي بكاؤه في خلوته وطلاقة وجهه مع الناس، وقال النبي ﷺ : **(كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق).**

ومن أخلاقهم **التودد والتآلف والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة** قال عليه الصلاة والسلام: **(المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف).**

وما ذكرناه من أخلاق الصوفية فهو غيض من فيض أخلاق رسول الله ﷺ التي ورثوها عنه وتخلقوا بها، ومن لم يتخلق بها فلا ينتمي إلى التصوف وليس من أهله وصحبة هؤلاء الصوفية المتحققين بهذه الأخلاق هي الترياق المجرب للتخلص من روعانات النفس وتهذيب الأخلاق والترقي بالأحوال، ولذلك كان علماء السلف يدعون الناس إلى مرافقة الصوفية ومصاحبتهم حتى يتعلموا منهم ويتخلقوا بأخلاقهم، وفى ذلك ورد أن رجلاً قال لسهل بن عبدالله التسترى (ت٢٧٢هـ) رحمه الله: من أصحب من طوائف الناس؟ فقال عليك بالصوفية، فإنهم لا يستكبرون ولا يستكثرون.